واصـــــــل بن عطاء

بقلم الأستاذ حافظ عبد الوهاب

مقدمة

اصطدم الاسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها بقتل الخليفة الثالث (عثمان)، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم تملك الايمان قلوبهم، وتوالت الأحداث بعد ذلك، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ،وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة، حتى سرت نجوم الشقاق فى بروج العقول ، وافترق الناس إلى : شيعة ، وخوارج ، ومعتدلين ؛ وغلا الخوارج فكفروا من عداهم، وغلا بعض الشيعة فرفعوا (علياً) إلى مقام الألوهية، بيد أن هذه الأعاصير لم تقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فقد آن للمسلمين أن يشتغلوا بأصول العقائد بعد فراغهم من الحروب ؛ ووجد من أهل الاخلاص الحسن البصرى الذى مضى حد عزمه ، وورى زند أمله ، فكان له مدرسة للتعليم بالبصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب ؛ ولكن بعد مديدة من الزمان دبت عقارب الخلاف، فاعتزل واصل بن عطاء عن أستاذه الحسن البصرى بعلم أصولا لم يكن قد أخذها عنه .

واصل بن عطاء

ولد واصل بالمدينة سنة ٨٠ هـ ؛ ثم انتقل إلى البصرة وسمع من الحسن البصرى ، وتوفى سنة ١٣١ هـ ؛ وكان يكنى بأبى حذيفة ، ويلقب بالغزال، لجلوسه عند صاحب له فى سوق الغزالين، ولم يلزم هذه السوق إلا ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعففات ؛ قال أبو العباس المبرد : كان واصل أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة فى الراء ، ولا يفطن لذلك لاقتداره على الكلام . قال أبو العلوق الضبى الشاعر المعتزلى يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الراء على كثرة ترددها فى الكلام حتى كأنها ليست فيه :

عليم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يغلب الحق باطله

وقال آخر :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله فعاد بالغيث إشفاقاً من المطر

واصل وبشار بن برد

طالما كان بشار يمدح واصل بن عطاء ، ومن قوله يفضله على خالد بن صفوان ورفقته يوم خطبوا عند والى العراق :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة من خطبة بذهت من غير تقدير
وإن قولا يروق الخالدين معا لمسكت مخرس عن كل تحبير

لأنه كان مع اعجابه الخطبة التي نزع منها الراء ، كانت مع ذلك أطول من خطبهم ، ثم هجاه الأعمى لاختلافهما فى الرأى ، قال :

مالى أشايع غزالا له عنق كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا(١)

فلما هجا واصلا وصوب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين ، وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقيل له وعلى أيضاً ؟ فأنشد :

وما ضر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

قال واصل عند ذلك : « أما لهذا اللحد الأعمى من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لبعثت إليه من يبيح بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله وفى يوم خلله »

عبادلة واصل للخوارج

أجمع أصحاب الحسن والخوارج والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر ، ثم انفردت الخوارج وحدها ، فقالت هو مع فسقه وفجوره كافر ، وقالت المرجئة : هو مع فسقه وفجوره مؤمن ، فأبرى لهم واصل قائلا : قد سميتم صاحب الكبيرة بالاجماع فاسقاً فاجراً ، وهذا صحيح كما نطق به القرآن فوجب تسميته به ، وما ترد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تدعم إلا بدعامة من كتاب الله أو سنة نبيه ، ثم قال واصل للخوارج : وجدت كل أحكام الكفار المنصوص عليها فى القرآن زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه ، وفى السنة أن أهل الكفر لا يتوارثون ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، ولم يفعل بصاحب الكبيرة كذلك ، فاذن وجب أن يكون مرتكب الكبيرة غير مؤمن ، لزوال أحكام المؤمن عنه فى كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافر لزوال أحكام الكفار عنه ، ووجب أنه ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه فى سنة نبينا ، ووجب أنه فاسق فاجر ، لاجماع الأمة على تسميته بذلك ، وبتسمية الله له فى كتابه .

(١) أى كعنق الظليم الفلوى وهو ذكر النعامة لأنه كان طويل العنق جدا

أساس الاعتزال

إن أساس الاعتزال فرقة القدرية، التي كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد ، ثم جاء واصل وعمرو بن عبيد في آخر دولة بني أمية ووسعا مجال القدرية ، وأدخلا فيها ملاحظات جديدة، ودققا وفصلا ، وكان عمرو من تلامذة واصل اشتهر بالزهد والورع ، وفيه يقول أبو جعفر المنصور :

كلكم يطلب صيد ... غير عمرو بن عبيد

فكان يجادل مخالفيه، ويدعو إلى الاعتزال في مهارة ، فاذا رأيته مقبلا توهمته جاء من دفن والديه ، واذا رأيته جالساً توهمته أجلس للقود ، واذا رأيته متكلما توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا إلا له ، وقد أبى هو وأصحابه أن يتولوا للحكومة عملا ، وأرادوا أن يكون عملهم لله خالصا .

ويظهر أن النقطة المبدئية في نشأة مذهب الاعتزال، هي القول بالمنزلة بين المنزلتين ، إذ كانت حالة المجرمين من الأمة، مسألة حيوية لم يزل بحر المناظرات فيها زاخراً في ذلك الزمان، والسبب في هذا الاعتزال أن رجلا دخل على الحسن البصري قائلا له : يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، وهم الخوارج ، وجماعة يرون أن العمل ليس ركنا من الايمان ، وهم المرجئة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل : أنا لا أقول إن مرتكب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة.

موقف المعتزلة السياسي

لم يقتصر أهل الاعتزال على الجادلات الدينية فحسب ، بل خاضوا في ميدان السياسة وأبدوا آراءهم ، فقالوا: إن بيعة أبي بكر صحيحة شرعية ، ولم تكن بنص من رسول الله، وإنما كانت بالاختيار ، واختلفوا أيهما أفضل : أبو بكر أم علي ؟ فقال قدماء البصريين: كالنظام والجاحظ: إن أبا بكر أفضل من علي ، وقال البغادده كأبي الحسين الخياط إن علياً أفضل ، ولهم في ذلك حجاج طويل ، ولما وصلوا إلى واقعة الجمل، كان واصل يقول إن أحد الفريقين فاسق بقتاله لا محالة ، وأما عمرو بن عبيد فقال بفسق الفرقتين المتقاتلتين جميعاً، وتبرأ المعتزلة من عمرو ومعاوية وخطئوهما وتبراعهما .

بزوغ علم الكلام

المعتزلة هم أسرع من استفاد من الفلسفة اليونانية بعد صبغتها صبغة إسلامية ، وأشهر من استخدم الفلسفة في ذلك أبو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ ، فالمعتزلة هم الذين خلقوا علم

الكلام فى الاسلام، لأنه فى أوائل القرن الثانى للهجرة ظهر أثر من دخل فى الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس ؛ فكثير من هؤلاء أسلموا ورءوسهم محشوة بأديانهم القديمة، فسرعان ما أثاروا حول الاسلام الشكوك والأوهام، كل هذا دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوا جدالا علمياً وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله. قال المرتضى عن واصل « إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ؛ ومارقة الخوارج ؛ وكلام الزنادقة، والدهرية، والمرجئة، وسائر المخالفين »

فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم فى فصاحة من القول، يصفها بشار بقوله فيه :

وقال مرتجلا تغلى بداهته كرجل القين لما حف باللهب

وتصفه زوجته فتقول :

« كان إذا جنه الليل صف قدميه يصلى ولوح ودواة بجانبه، فاذا مرت به آية فيها حجة على مخالف، جلس فكتبها ثم عاد إلى صلاته » .

عقائد المعتزلة

أمكننى بعد البحث والتنقيب فى بطون الكتب القديمة، أن أجمع الأصول التى كان يقول بها جماعة الاعتزال، وها هى بالاختصار :

١ — اعتقاد أن الله واحد لا شريك له من أى جهة كانت ولا كثرة فى ذاته البتة ، وهو خالق الجسم وليس بجسم ، ومحدث الأشياء وليس كالأشياء ، وأنه لا يرى بالأبصار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ويظهر أن هذا الأصل موضوع للرد على المجسمة الذين تقولوا أقاويل تقشعر منها ذوائب المؤمنين .

٢ — العدل : وفيه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق ولا يفعل الا ما فيه المصلحة . وأفعال العباد منسوبة إليهم يفعلونها بقدرة خلقها الله فيهم ، ويظهر أن هذا بلا شك موضوع أولا للرد على الجبرية وبعض من قال برفع الظلم من الله تعالى من الرافضة.

٣ — القول بالوعد والوعيد: فالله صادق فى وعده ووعيده لا مبدل لكلماته فلا يغفر عن كبيرة الا بعد التوبة .

٤ — القول بالمنزلة بين المنزلتين.

٥ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيه تكليف المؤمنين الجهاد، وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه، سواء أكان كافرا أم فاسقا ، قال الخياط فى كتابه الانتصار :

« ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة »؟

حافظ عبد الوهاب
دبلوم دار العلوم العليا